أوركيد

الإهداء:

لأولئكَ الذين تعوّدوا على رؤيةِ الأشياءِ من زاويةٍ واحدة ثمَّ تلقَّوا ألفَ صدمةٍ وصدمة من الزّوايا الأخرى بخيبةٍ تخلو من الرّحمة..
للمنتظرينَ زمناً تغيبُ فيهِ أشياءٌ تعاكس السّعادة..
وإلى الذين لا زالوا حتّى هذه اللّحظة يهدِرونَ الحياةَ بحثاً عن حياة :
مهلاً... هنا سبيلٌ نحوَ تصحيحِ ماسبق، ورسائلٌ تائهة ما أنتم إلّا محطّاتِ وصولٍ لها.

ثمَّ لأشخاصٍ يقدّمونِ لي السّعادة بطرائقٍ كثيرة ويقفونَ بيني وبينَ المصاعب في كلّ حينٍ وحين؛ ما أنتم إلّا الأقربَ لقلبي.

مقدّمة

هل بمقدورِ كلّ إنسان أن يتغيّر نحو الأفضل بغضِّ النّظر عمّا يعانيهِ ويكابده؟

لا أعلم، لكنّي على قناعةٍ تامّة بأنّ المحاولة لتحقيقِ ذلك ماهي إلّا نصفَ الطّريق، أمّا النصف الآخر يُكمَن في كيفيّة التّناغم مع الحياة ومن أجلِ النّصفين أكتب.

(إن كنتِ تفتقدينَ جرأةَ التحدّث وجهاً لوجه عن أشياءٍ تعانينَ منها، فلتكتبينَ لي يا مارينا رسائلاً ورقيّة وتواظبينَ على إرسالها لي).

هذا ما قاله لها طبيبها النّفسيّ (كارلوس)، وعلى مدارِ خمسُ سنواتٍ وهي تتيحُ للمعاناةِ والمواساة فرصةَ الظّهورِ على هيئة تبادل رسائل بينها وبينه.

وإليكم ما كُتبَ فيها : الرّسالة الأولى :

إلى الطّبيب: كارلوس

طابَ وقتُك

رغم أنّني بعدَ الذي حدثَ قطعتُ عهداً على نفسي بألّا أكتبَ مجدّداً،وأن أتناسى مهارةَ تبادلِ الرّسائل هاهي يدي تخونَني وتكتب.

يا للخيبة! يحدثُ أحياناً أن تعترينا رغبةُ التمسّكِ بأشياءٍ طالَ اعتقادُنا بأنّها مِلكاً لنا حتّى تسرّبت على مرِّ الزّمان كما يتسرّبُ الماءُ من بين أيادينا، في كلِّ مرّة أتذكّرُ فيها أنّ الطّريقَ نحوَ مامضى لم يكُن إلّا منقطعاً أشعرُ بمأساةِ ماسبق، وحتّى هذه اللّحظة مصابةٌ أنا بالخوفِ من فقدانِ ماتبقّى من ذكريات.

مارينا

١٩٦٤/٣/٢٤

الرّسالة الثّانية:

إلى الطّبيب كارلوس

السّعادة لأيّامِك

في وقتٍ ما نصبح بحاجةٍ ماسّة لأن نفصحَ عمّا يجولُ بأنفسِنا ويعكّرُ صفوَ الحياة، لذلك تجدني أرسلُ إليكَ كلاماً قبل وصولِ ردّ على سابقهِ،لا أخفيكَ سرّاً بأنّني أصبحتُ مدركة تمامَ الإدراكِ بأنّ الأشياءَ كلّها تتغيّر ويتبدّل حالُها حتّى تلك التي أحببناها وأخذت حيّزاً كبيراً من أعماقِ أرواحنا، لكن بعضَ التغيّراتِ تهزمنا كما لم نُهزَم من قبل، وهزيمتي تجلّت في أزهار أوركيدٍ وذاكرة، أتدري ؟!

قيلَ لي مرّةً :

(مصابةٌ أنتِ بهوسِ الاحتفاظ بكلّ شيء، ما إن تبقينَ هكذا حتّى يأتي يومٌ تستيقظينَ فيه على فاجعة بنكهةِ فراغٍ ولـيالٍ لم يعقبها نهار).

أَيُعقَل أنّ أعظمَ مصائبنا تأتي من التعلّق وافتقاد مهارة التخلّي ؟

أم من عدمِ امتلاك قوّةً لردعِ ما يُحدِثُ ندوباً في الرّوح ؟

مارينا

١٩٦٤/٣/٢٥

بعدَ مرورِ ثلاثة أيّام تلقّت مارينا ردّاً من كارلوس، وذلك كانَ بمثابةِ رسالة ثالثة بينهما.
إلى الثّابتة مارينا.

طابت أوقاتك

لم يسبق أن ناديتَ أحداً بالثّابت، فهذه الصّفة وددّتُ أن أطلقها على أولئك الذينَ لا يتأرجحونَ بين منطقٍ وعاطفة،يعرفونَ كيفَ تتمّ مراوغة الذّاكرة ومتى، لكنّي بعدَ تلقّي رسائلك أحببتُ كسرَ هذهِ القاعدة، لا تتّخذين كلامي على محملِ المواساة، بل على محملِ التّقدير المضاعف لأنّ يقيني بأنّ كتابةَ مانشعرُ به والترنّح في بحورِ اللّغة ليس بالأمر السّهل، بل يحتاجُ كثيراً منَ القوّة لمواجهةِ مامضى وما سيأتي، والمواجهة بحدِّ ذاتها ثباتٌ بطعمٍ آخر.
فلتستمرّين بالبوحِ وتتذكّرينَ دوماً بأنّ الكونَ بكلّ ما يحتويه من رحمةٍ ما هو إلّا آذاناً صاغية لكِ.

كارلوس
١٩٦٤/٣/٢٨

مرَّ أكثر من ثلاثين يوم لم يتخلّلها ولَو رسالة واحدة ثمَّ كُتِبَت الرّسالة الرّابعة.
إلى الطّبيب كارلوس

طابَ وقتك

لا زالت تلك اللحظة بذاكرتي عالقة، حين جاءَني (ماتيو) وضحكةٌ تبدو جليّةً على شفتيهِ، أمّا المسافة بيننا كانت لا تتجاوز متراً واحداً، ثمَّ قال لي :
أنتِ أوركيدَة حياتي لذا إيّاكِ والذّبول.
تتساءَلينَ عن سببِ هذه التّسمية، وتنظرينَ لي بدهشةٍ جعلتني أستشعرُ مامعنى أن يكونَ بمقدورِكَ صنع سعادة لشخصٍ ما، لكن تمهّلي يا مارينا لا زلتُ أُخبّئُ لعينيكِ سعادةً أكبر، حالما تشاهدينها ستغدو ملامحُ وجهكِ كما لو أنَّ الحزنَ لم يلامس قلبكِ ثانية.
أمسكَ يدي وخرجنا سويّاً من المنزل، كانت خطواتنا هادئة والطّمأنينة تحتضنُ وجودَنا معاً، شيئاً فشيئاً بدأتُ أشعرُ برائحةِ أزهاريَ المفضّلة تملأُ المكان، توقّفَ ماتيو موجّهاً نظره نحوي والحبُّ يقطرُ من عينيهِ وهمسَ لي قائلاً:
(أمنيتي أن نمشيَ في دُروبٍ تفيضُ بالأوركيد)
هذا ما قلتِهِ لي في مارس الماضي، تعتقدين أنّني تناسيت !؟
ثمّ تباطأت خطواتُهُ وكأنّهُ يزيدني دهشة، ثوانٍ قليلة قد مضت، والوصولُ للمكانِ المنشود علِمتَهُ بمفردي حين رأيتُ حقلاً كاملاً من الأوركيد المحبّب لقلبي، أشارَ ماتيو بيدهِ نحوَه وخاطبَ قلبي هامساً :
وددّتَ أن يكونَ مارس هذا العام شهراً لتحقيقِ أمنيتكِ، لذا زرعتُ لكِ هذهِ المساحة كلّها بما تحبّين.

حتّى هذه اللّحظة يا كارلوس لم أستطِع أن أصِفَ شعوري حينها، كانت سعادتي كمن يحصل على كلِّ شيء يريده على طبقٍ من صدفة.
كم رغبتُ في ألّا ينتهي ذلك اليوم،لكنّه انتهى!

مارينا
١٩٦٤/٥/٢

يالغرابةِ الإنسان حينَ يقرّر أن يبوحَ بأحداثٍ مضت فيخونُ صمتَاً امتدّ لسنوات ٍكثيرة،ومارينا كالذي اختارَ أن يبوحَ دون توقّف؛ هاهي تكتب الرّسالة الخامسة بعدَ الانتهاء من كتابةِ الرّسالة الرّابعة مباشرةً.
إلى الطّبيب كارلوس

سلامٌ لقلبكَ
يُخيَّل إليَّ أحياناً أنّني أمتلكُ مهارةَ التحكّمِ بشعورٍ ما، ثمّ يأتي الحنينُ نافياً تخيّلاتي تلك،أمّا ماتيو كانَت لأجلهِ أعذبُ المشاعر، لم أرَه عاديّاً ذاتَ يوم، حتّى أنّني أتحوّل لعاجزة عن إطلاقِ تشبيهٍ ينصفُ طريقةَ حبّي إليه، وما إن أنوي التحدّثَ عنه تغدو الحياةُ خالية من الصّحاري، تتحوّلُ لربيعٍ فصولها، وتصبحُ السّماء بِقمرَين، كنتُ ألقي كلماتي تلك على مسامع كارلا أيضاً وهي صديقة قريبة من روحي، وبدورها كانت تبتسمُ لي وكأنّها تزِفّ لحبّنا أمنياتاً بالبقاءِ

والاستمراريّة، عفويّةٌ هي ومثاليّة لتلك الدّرجة التي جعلت ثقتي في ازديادٍ دائم نحوها لا شكّ يطالُ يقيني بها، لكنّها المعاناة كانت تصلُ إليها وتستقرُّ على هيئةِ دموعٍ في عينيها ما إن تبدأ بحديثها عن جون وتنتقي حروفها بحذرٍ شديد خوفاً من عدمِ الشّعور بما تعانيهِ.

(أيُعقَلُ أنّهُ هائماً بي كما يخبرني، وفي الوقتِ ذاته لا أجده خائفاً من فقداني؟)

(أمِنَ الممكن أن يأتي ذلك اليوم الذي تتلاشى فيهِ أسبابٌ كامنة في قلبه تجعله في غاية الانفعالِ وتستنزفُ هدوءَه؟)

(سئمتُ المحاولة يا مارينا في جعلِ جون أكثرَ طيبة؛ وأصبحتُ أعي أنهّ يفتقدُ صفةَ التّقدير، يتخلّى عن أشيائهِ بثانية، والتمسّك في مفهومِه لا يمتُّ للمنطق بِصِلة.)

هذا ما كانت ترويه، ثمّ تغسل وجهها، تعانقني، وتغادر، وخلالُ حديثها تهربُ منّي أساليبُ المواساة، وأقولُ لها بكلّ عطفٍ :

فلتتّخذين من الصّبرِ حيلة، ومن الدّعاءِ كثيراً من الأمل، فالحياةُ لا زالت أمامكِ ولا زالَ الدّربُ يكتضُّ بعناوينِ النّجاةِ والفرح.

مارينا

١٩٦٤/٥/٢

بعضُ الحكايات لها قدرةً على سلبِ الفضول نحوَ مجرياتها، كان هذا واضحاً في الرّسالة السّادسة بينهما ومحتواها الآتي :

لمارينا

الطّمأنينة لكِ

بقيتُ قَلِقاً ليلة البارحة دون معرفةِ السبب الأساسي وراءَ ذلك، ربّما هو فضول المرء الذي يُبقيه قيدَ حيرة حين يُثارُ انتباهَهُ؛ وهذا ما شعرتُ به منذ وصولِ رسالتك الأولى، ورغبتُ كثيراً في استماعي لكِ دون اتّخاذيَ دورَ الطّبيب، وأنتِ فتاة تجيدينَ التحدّث عن آلامكِ بطريقةٍ ملؤها الإبداع والقوّة هذا تحديداً ما يصنعُ فرقاً بين الكثيرين ، فبعضهم يعاني متناسياً أنّ معاناتَهُ ما هي إلّا طريقاً يمكّنهُ من الوصولِ إلى أبعادٍ لا متناهية من الوعي والإدراك، والبعضُ الآخر يعاني مُدركاً حقيقةَ قدرتهِ على التخطّي فيتصالحُ مع أشياءٍ سارت عكسَ التمنّي ويتقبّلُ ماحدثَ وما سيحدث، أتعلمين ؟!

لديَّ حدسٌ بأنّك تنتمينَ للبعضِ الآخر، هذا ما يجعلني في انتظارٍ دائم لقراءةِ كلاماً تكتبينَه دونَ معرفتكِ بمدى تأثيره على نفسي، وكيف يتركُ آثاراً من اللّهفة لمعرفة كلّ ما تحويه الحكاية من تفاصيلٍ وذكريات.

كارلوس
١٩٦٤/٥/٤

نصابُ أحياناً بوعكةِ استنكارٍ لا تنتهي إلّا بعدَ إثباتِ قدرتها في أن تجعلنا ثكالى حياة، هذا ما ظهرَ في الرّسالة السّابعة : إلى الطَّبيب كارلوس

امتناني لكَ

لستَ وحدك الذي بقيتَ قيدَ حيرة أنا أيضاً، كنت في كلِّ مرّةٍ أحاولُ فيها صياغةَ ما مضى بشكلٍ يليقُ بالرّوح يعتريني شعورٌ بالأسى وأفشلُ في ذلك، وأرى الدّهشة تغتالُ المشهد بأكملهِ فيصبحُ خارجَ دائرةِ المألوف.

فتعودُ الحيرة صانعة لقلبي تساؤلاتٍ معظمها يتمحورُ حولَ معنى واحد :

من أعطى الحقَّ لأشياءٍ لا نريدها في أن تحدث، وما السرّ في أن تصطدمَ أيّامُنا بالقسوةِ فنبقى بانتظارِ ذلك اللّين الذي نرجوه.

أثناءَ كتابتي لكلمة اللّين لم أتذّكر إلّا إيليانا؛ لكن ما علاقتها باللّين ؟

طوال معرفتي بماتيو وحينَ أخبرهُ بعدم تقبّل إيليانا كان يلقي على مسامعي بأنّها صديقة له بكلّ ما تعنيهِ الكلمة من معنى ، ثمّ يضيفُ : هذه الفتاة لديها الكثير من الطيبة التي تجعلها محبوبة عند الجميع، لكن ما يدهشني يا مارينا بأنّكِ ترينها

عكسَ ذلك، مايدهشني أكثر ! كيف لأحدٍ مثلك أن يحكمَ على الأشخاص بنظرةٍ سطحيّة بسبب مواقفٍ عابرة تكرّرت بكلّ عفويّة.
هكذا كانَ ينتهي جدالنا حولها ، وتبقى بنظري فتاة لا تمتلك أقلّ المقوّمات كي تكون محبوبة، مشاكسة هي للحدّ الذي يجعل وجودها يعكّرُ صفوَ الرّاحة، أنانيّة تتمسّكُ بذريعةِ أنّ روحها كروحِ طفلٍ، لا تهابُ شيئاً وتحاولُ إقناعَ المحيطين بأنّ الحياة رائعة، تقدّمُ الدّعمَ النّفسي لهم بطريقةٍ عبثية متناسية إعطاءَ مشاعر الألمِ حقّها في أن تكون.
أتدري؟
أثناء انتهائي من كتابةِ هذه الرّسالة ، أرعبتني فكرةَ مرور الوقتِ وقدرته في إحداثِ تغيّراتٍ نقف أمامها وقفةَ اعتذارٍ مرّةً لأولئك الذين مرّوا في حياتنا ، ومرّات عديدة لأنفسنا لما حمّلناها من أشباهِ الحقائق.

مارينا
١٩٦٤/٥/٧

لا زالَ الفضول يسيطرُ على كارلوس، فمارينا تجيدُ التحكّم في حروفِ اللّغة، لتقدّم معاناتها بصورةٍ أقرب للعاطفة، والرّسالة الثّامنة كتبها فورَ انتهائه من قراءةِ رسالتها.
لمارينا

سعيدٌ بكلّ ما تبوحينَ به

نادراً ما يأتيني أحدٌ لديهِ مهارةَ التّعبير عمَّ يختلجُ في نفسهِ بكلّ تلك الرّتابة والسّرد المدروس، لكن استوقفتني كثيراً كلماتك عن إيليانا، فمن خلالِ نزعة الغيرة إزاءَ أشياؤنا التي نحب؛ باتَ الحقد يلغي فينا صفة الرّحمة شيئاً فشيئاً، وحديثك أصبح عن صديقة ماتيو كالسُمّ خالٍ من الرّأفة، لذا مهما حدثَ لكِ من إساءةٍ جسديّة كانت أو نفسيّة لا تسمحي للضّغينة في أن تتحكّمَ بإنسانيّتكِ، على العكس حاولي دوماً أن تحتوي من حولك بطريقةٍ مَرِنة، ضعي في الحسبان أنّ معظمنا يعاني بطريقةٍ أو بأُخرى، وأنّ لكلّ منّا طريقته في إخفاءِ ما يسلبُ منه السّعادة وتعويض ذلك النّقص بأساليبٍ كثيرة ، أنا لا أعلمُ ظروفاً تحدث لإيليانا، لكنّي أدركُ أنهّ لا يوجد شخصٌ على الإطلاق يولد بصفاتٍ سيّئة، بل للحياةِ دورها في إبعادِه عن حدودِ براءةٍ سيظلُّ يشتاقها، وهنا يُكمَن دورنا في ترميمِ بعضنا البعض.

كارلوس

١٩٦٤/٥/٨

بعضُ الأسئلة تبقى إجاباتها معلّقة في حنجرةِ الصّمت فلا تُنطَق، وتصبح إشارات الاستفهام في نهايتها كلعنةٍ واضحة تذكّرنا بأنّ هناك دوماً ما نعجز عن معرفته، والرسالة

التّاسعة تحمل أسئلةً لا زلنا حتّى يومنا هذا نحاول الإجابة عنها.

إلى الطّبيب كارلوس

طابَ وقتك

رسالتك التي وصلتني بالأمس وضعتني في حالةٍ أفضل من سابقها، كما أنّني شعرتُ بفرحٍ ضئيل لم أشعر به منذ مدّة، لا أخفيكَ سرّاً بأنني تيقّنت من أنّ للكلمة تأثيراً عظيماً على النّفس، ومن خلال إبداءك إعجاباً بطريقةِ بوحي أصبحتُ متلهّفة لإكمالِ ما حصل، لكن سؤالٌ هرولَ لرأسي سرعانَ ما أنهيتُ القراءة :

كيفَ للإنسانيّة أن تتجلّى فينا وتتجدّد رغم تحدّياتٍ تُلقي بنا في سراديبٍ معتمة ولن ننجو منها إلّا بعد أن نفقدَ فيها أجزاءٌ من أرواحنا، فتجعلنا شبه إنسانٍ بروحٍ ليست مكتملة، من فضلك أجبني كيف ؟

قل لي ماذا نجني حين نتعمّد أن نسلكَ دروبَ التّعاطفِ والعطاء اللّامشروط؟

أو ما هي الأشياء التي قد تتغيّر بمجرّدِ قرار نتّخذه بلحظةِ محبّة أساسه أن نصبحَ ذو ودّ ونقاء؟

أوليسَ لكلِّ أحد فينا قدر مترّبص به؟! لماذا نتعب إذاً في أن نكون على هيئةٍ ما ؟

كامل اهتمامي أسكبه في تلك الأسئلة، وأنتظرُ تفسيراتٍ لها، وأعلمُ أنّ الأوانَ قد فات وانتهى رصيدُ محاولاتي في إصلاحِ

الحكاية وتلميعِ شخصيّاتها، لكنّي في الوقتِ ذاته أحتاجُ لذريعةٍ أحتمي خلفها من عاصفةٍ تحمل معها خبايا المستقبل، وأظنُّ ذريعتي تُكمَن في إيجادِ تفسيراً لما سبق،أجل...ربّما أكون بذلك قد تقدّمتُ خطوةً نحو التّشافي أيضاً وهذا عزاءٌ يليقُ بمَن عانى لفتراتٍ طويلة.

مارينا

١٩٦٤/٥/٩

كيفَ سيجيبُ كارلوس عن أسئلة مارينا ؟خاصّةً أنّه يعلم بأنّ الشخص المتألّم يرفض الإجابات المنطقيّة التي تعاكس شعوره.

الرّسالة العاشرة :

لمارينا

كاملُ تقديري

قبل كلّ شيء، حتّى قبل إكمال قراءةَ الرّسالة، أريدُ منك أن تضعي كاملَ تركيزك في كلمة (المعاناة) لدرجة تشعرين فيها أنّك منفصلة عن واقعكِ، ثمّ تأتينَ بورقةٍ بيضاء وتكتبين فيها الآتي :

من أينَ تأتي المعاناة، ولماذا ؟

كيف تؤثّر فينا ومن يحدّد مدّةَ تأثيرها؟

حسناً، على افتراض أنّك استطعتي الإجابة،احتفظي بها لنفسك لكن بعد مقارنتها مع هذه الإجابات المقدّمة منّي إليكِ:

•• تأتي المعاناة والتي أقصد بها هنا الحزن العارم الذي بمقدوره أن يضع اللّيل تحت أعيننا من فقدان آلية السيطرة على المشاعر، ومن مقاومةٍ للواقع الذي نأبى حدوثه ويحدث ، فكلّ شيءٍ يا مارينا نقاومه يصبح تأثيره علينا يتزايد أضعافاً وأضعاف، لذا عليكِ أن تتقبّلي، ربّما تعتقدين بأنَّ في ذلك استسلام وتكونين مخطئة حتماً، فغاية حديثي عن التقبّل تكمن في ممارسته بشكلٍ صحيح يعني أن تستقبلي كل مايحدث لكِ من ألم بصدرٍ رحب، ثمّ تفتحين نافذةَ الحياة من جديد وتستشعرينَ قدومَ الأفضل بإيمانٍ لا يتخلّلهُ تشكيك.

•••أمّا تأثيرها ومدّته يختلفان كلّياً من شخصٍ لآخر؛ بعضهم يامارينا يحاولون جاهدين على رؤيةِ أنفسهم ضحيّةَ ما جرى ويتّخذون هذا الدّور طيلة أيّامهم ،وبعضهم تعيثُ المعاناةُ خراباً في قلوبهم تحوّلهم لأقصى درجات السّوء، يموتُ ضميرهم فينشرونَ الإحباطَ بكلّ تفانٍ وإصرار

وإصلاحهم إن لم يكن مستحيلاً فصعباً،أمّا بعضهم الآخر قد يصابُ بالوحدة والانعزال التّامّ ويبدأ بتوجيه اللّومِ تارةً على نفسه وتارةً أخرى على من حولهِ، وهناك قلّة من الأشخاص يترجمون المعاناة بطريقةٍ مغايرة تماماً؛ فنجدهم على يقين بأنّ كلَّ ما يحدث لهم ما هو إلّا ترقية لمستوى وعي أعلى وأعمق، يدركونَ أنّ الحياةَ تمضي فلا يقفونَ انتظاراً في محطّاتها ولا تُسرقُ أعمارَهم على غفلةٍ منهم، أولئك فقط من أجادوا فهم مايجري واضعينَ انتباههم في اللّحظة الآنيّة، يقدّسون الحاضر، تاركين مستقبلهم في طيّاتِ التوكّل.

كوني من أصحاب الطّريقة المغايرة يا مارينا، لا تتعمّدينَ ارتداءَ الخيبة كندوبٍ وجرحٍ عميق، بل كتجربةٍ بنتائجٍ عظيمة مهما قلّت ،انظري إليها نظرةً ثاقبة كي تعي بأنّها لم تتغلّب عليك يوماً.

وفي نهاية رسالتي هذه تذكّرتُ سؤالك عن ذاك القدر المتربّص فينا، ولا أحد ينكر ذلك لكن من وجهة نظري أرى القدر يتجسّد بفكرة الفعل وردّ الفعل، القدر هو العدل الإلهي، هو تصرّفاتنا، توقّعاتنا، أفكارنا ، حتّى نوايانا فالكون بسيطاً بمقدار ما نراه معقّداً، فقط كوني رحيمة واعتنقي الإنسانيّة بكلِّ زمانٍ ومكان.

كارلوس

١٩٦٤/٥/١٠

الرّسالة الحادية عشر:
إلى الطّبيب كارلوس

السّعادة لأيّامك

أصبحت أشعرُ أنّكَ ليس طبيباً وحسب بل ملاذاً يوفّرُ السّكينة لي إلى حدٍّ لا بأس به، لكنّها ذكرياتي تصرُّ أن تبقى متشبّثة بي، وأكثرها دفئاً تلك التي حدثت في ذلك اللّقاء الذي خطّطنا لهُ جميعاً : ماتيو و أنا، كارلا جون وإيليانا، كان ذلك قبلَ خمس سنوات وكانت اللّهفة المقترنة باجتماعنا تعادلُ فرحةً عارمة، عقدنا اتّفاقاً حينها أنّ نتواجد في مقهى وسط المدينة، في اليوم التّالي تواجدنا في منزل ماتيو ثمّ ذهبنا للمكان المنشود، جلسنا والطاولة أمامنا شعرتُ بها ترقصُ فرحاً، وبدأنا بسردِ تفاصيلَ أيّامنا، أذكرُ مقاطعةَ إيليانا حديثي في كلّ مرّةٍ أصف فيها شعوري بحقل الأوركيد، لذا قرّرت افتعالَ حيلة تمكّن الجميع من التحدّث كلٌّ في وقتهِ، فقلتُ : سأطرح سؤالاً وأريدُ إجاباتً منسوجة من تجاربكم.
ما هي الحياة ؟
دون تردّد نظرَت كارلا لجون وأجابت:
الحياة هي المحاولات التي نصنعها، والتّجارب التي تصنعنا.
وجّهتُ نظري لجون كإشارة ليتحدّث، فخاطبنا قائلاً:

إنّي عاجزٌ عن إيجادِ إجابة منطقيّة،لكن يمكنني القول أنّها خساراتٌ متتالية لا تمنح الثّباتَ لشيء، كما أنّها نقيضُ الموت.
سيطرَ الصّمتُ بضعة دقائق، ثمّ قالت إيليانا:
ما الحياة إلّا فرصةً لأن نكون، فنحيا وتنقسمُ لحظاتنا لجيّدة نحبّها وسيّئة نكرهها، هكذا حتّى نصلُ لعتبةِ نهاية العمر فندرك أنّ ما مضى كلّه كان جميلاً يستحقُّ الإعادة مرّات كثيرة.

نظرتُ لماتيو فقالَ موجّهاً كلامه لي :
الحياة هي تلك الأماكن التي نكون فيها معاً، هي تلك القدرة المشتركة بين قلبي وقلبك التي تساعدنا في الاستمرار بالبقاء تحتَ ظلّ الحبِّ وعذوبة تفاصيله، الحياة هي رؤيتي للأوركيد مزهراً في كلّ الفصول فقط لأنّك تحبّينهُ، الحياة أنتِ!.
أذكرُ حينها أنّ المقهى تحوّل لفضاءٍ شاسعٍ من الفرح،ثمّ قلتُ إجابتي ونظراتي أنقّلها نحوهم جميعاً:
الحياة ماهي إلّا اكتشافاً للذّات؛ فحين تكتشف ذاتك هنيئاً لك أنت تحيا، وحين تمسك زمامَ الأمور ويكون بمقدورِك التّعبير عن عواطفِك دون خوفٍ وعناء، وتعلم بأنّ محاولتك في أن تدفن مشاعرك ماهي إلّا براكيناً خامدة من الألم الذي سيظهر

على شكلٍ غير محبّب عند كلّ منعطفٍ تواجهه، لذلك كثيراً ما نرى كاذباً،خائناً،قاتلاً،انطوائيّاً والكثير من الأشياء التي اكتسبناها دون أن نعي بأنّ السّبب الكامن وراء ذلك هو كمُّ الألم المتجذّر فينا وكيفيّة تأثيره، كما أنّني أعرف حقّ المعرفة بأنّ مشيئةَ الله كانت أن نولدَ كصفحةٍ بيضاء، ونخوض رحلةَ الوعي، نبني في أنفسنا مانريد وبذلك نكون أحراراً ونملك خيارات لا متناهية.
نقاشاتٌ كثيرة دارت بيننا ذلك اليوم، تبادلنا المعرفة والفرح والحبّ حاضراً في المشهد، انتهى ذلك اليوم كباقي الأيّام الماضية، لكنّه محفورٌ بذاكرةِ الحنين.

مارينا
١٩٦٤/٥/١٢

نجحت مارينا في إعطاءِ تحليلاً يصف الحياة، كلمات كارلوس الآتية كانت تؤكّدُ ذلك.
الرّسالة الثّانية عشر:
لمارينا

أوقاتك سعيدة
لستُ مندهشاً من تخطّينا لفكرةِ طبيب وشخصاً متعالَج، بل ما يدهشني حقّاً؛ كيف لفتاةٍ متمكّنة من صياغةِ الحياة بطريقةٍ ناضجة أن تكونَ محضَ معاناةٍ تجعلها عاجزة عن التّعبير عن مجرياتها وجهاً لوجه!

ربّما أصبحتُ محبّاً لرؤيةِ ملامحك حين يمتزج فيها هذا الكمّ الهائل من الوعي والألم، ثمّ أنّني شغوفٌ بما أرسلتي وبما سترسلين، فضولي تزايدَ كي أعي تلك الأشياء التي جرَت ومتلهّفٌ لمعرفةِ إن كان تحليلك للحياة قد تغيّر وسبب تغيّره بغاية الأهمية أيضاً، فلتستمرّينَ بالبوح وتعلمينَ أنّ الألمَ هو رصيدُ العظماء قبلَ أن يصبحوا عظماء.

كارلوس

١٩٦٤/٥/١٤

صديقي القارئ قبل إكمالِ القراءة، خذ نفساً عميقاً وحاول أن تجد ذاتك أكثر من خلال الآتي:

أعطِ تعريفاً للحياة

وفكّر؛ كيف ترى الألم من منظورك الخاصّ؟ وكيفَ يؤثّر بك؟

يُقال بأنَّ آلامنا حين نبوح بها تطفو على واقعنا ،وحين نكتمها خوفاً من ذلك نغرقُ في متاهةٍ لمحاولةِ نسيانها، مارينا تعي ذلك تماماً، فتكتب الرّسالة الثّالثة عشر:

إلى الطّبيب كارلوس

رافَقَك السّرور

اليوم، يومٌ ماطر، ومع كلِّ قطرةِ مطر يزداد شريطُ الذّكرياتِ وضوحاً، عاجزة عن تفسيرِ ماهية ارتباط المطر بالحنين لأشياءٍ مضت، لكنّه الخوفَ هذا الصّباح كان سيّد الموقف،

تُرى لماذا بدأتُ بالبوح ؟ وأنا أعلم بأنَّ ما حدثَ صدمةٌ لا تُنسى وأنّ استخراجَ المشاهد من الذّاكرة على هيئةِ بوحٍ مكتوب ما هو إلّا بمثابةِ حرباً خاسرٌ من أشعلها،ومع هذا أجدني أكتبُ وأكتبُ وأكتب.

المعذرة سأُكمِل الآن مراقبتي للشّتاء أشعرُ بأنّ قدرتي على التحدّث تضاءَلت حتّى التّلاشي.

مارينا

١٩٦٤/٥/١٥

إيضاحٌ من الطّبيب كارلوس جعلَ مارينا تستعيدُ قوّتها كي تستمرَّ بروايةِ ما مضى.

الرّسالة الرّابعة عشر:

لمارينا

أيّامك مليئة بالخيرِ والمطر

لا أنكرُ أنّ ما نتفوّه به يُتَرجم في واقعنا ويتمُّ تسجيله في أرشيف الواقع وبذلك نكونُ قد قدّمنا له فرصةً للظّهورِ من جديد، لكن هذا ليس بالضّرورة أن يحدث والأمرُ يتوقّف على كيفيّة التفوّه، وعلى الشّخص الذي نتفوّه له،
فلا يصحُّ بتاتاً أن نذهبَ لصديقٍ أو قريبٍ أو ونبدأ بسردِ حكايةَ صدمة تعرّضنا لها، سيدعموننا بالتّأكيد، سيظنّون أنّهم قدّموا دعماً لنا، وهذا خطأٌ فادحٌ للغاية، فالصّدمة لا تُعالَج عشوائيّاً وبكلماتٍ عبثيّة حسب تجارب الأشخاص المحيطين، لذا تأكّدي بأنّكِ على الطّريق الصّحيح ، وقمتِ باختيار الطّريقة الأمثل وهي التحدّث لشخصٍ مختصّ، كما أنّ النّسيان ليس شرطاً من شروطِ التّعافي، بل شرطه الأسمى هو عدمِ التأثّر بما مضى ومواجهةِ الذّاكرة دون أدنى شعورٍ بالخيبة .

كارلوس
١٩٦٤/٥/١٧

ماحدثَ ذلك اليوم لم يكن عاديّاً، تروي مارينا ذلك في الرّسالة الرّابعة عشر :
إلى الطّبيب كارلوس

طابت أوقاتك

بعدَ مرور ثلاثة أيّام على اجتماعنا في المقهى ، جاءَني جون ذلك الشّخص الذي تعوّدنا أن نراهُ قويّاً حدّ القسوة، كنّا نتفادى أن ينفعل لأنّنا نعلم كم الكلمات الجارحة التي ستظهر على لسانِهِ حينها، وطوال معرفتنا بهِ ندرك أنّهُ متأقلمٌ مع أيّ بيئة يوضعُ فيها، متناغمٌ مع أيّامه وكلُّ ما يعكّر صفوها ينسفه بعيداً كأنّه لم يوجد، لكنّها الرّيبة داهمتني حينَ فتحت باب المنزل ورأيته يذرفُ دموعاً جعلتني للحظةٍ أشكُّ بأنّ الذي أمامي لم يكن جون، حاولت بعدها تدارُك الموقف، دخلنا وأثناء جلوسه على الأريكة شعرتُ به وكأنّهُ قضى عمره بأكملهِ واقفاً وللتوّ جلس، جلبتُ القهوة وطلبت منهُ أن يخبرني عمّا حدث له لكنّه كان يكتفي بالنّظرِ إليَّ ووجهه مبتلٌّ بالدّموع، بعد صمتٍ دام أكثر من نصف ساعة قال لي:
أين ماتيو ؟

نبضٌ غريبٌ حصل لي، وقلتُ :
منذ يومين لم أرَهُ، منشغلٌ هو بحقلِ الأوركيد يصبُّ كاملَ اهتمامهِ به، ومن أجلِ أن يضحك جون أضفتُ :
أتدري؟ بدأت الغيرة تتملكّني، بدأتُ أغار من الأوركيد، على أيّةِ حال ما إن يأتي ماتيو وأراه سأخبره أنّك تريدهُ.
كان جون ينظرُ إليّ تلك النّظرة التي تجعلني أنتظر أن يقول ولو شيئاً واحداً، لكنّه لم يقل.

أذكرُ ملامحَ وجهه جيّداً، أذكرُ كم كانت طقوسُ الخيبة تخيّمُ عليهِ، لكنّه قرّرَ أن يبقى صامتاً، وقبل أن يغادر قال لي : ماحصلَ أكبر من أن يُحكى، لكنّه حصل.
ثمَّ أضاف:
قولي لماتيو أنّني أنتظرهُ.
انتهى ذلك اليوم ولم يأتِ ماتيو.

مارينا
١٩٦٤/٥/١٩

يتغذّى على خلايانا ذلك المسمّى بداء التّفكير المفرط حينها فقط تصبح كلّ ألفاظِ المواساة عقيمة لا تنجبُ ولو أملاً واحداً، ومانحتاجه في ذلك الوقت تحديداً حدثاً يقلبُ الواقع رأساً على عقب، وإن لم يحدث غابَ أمانُ الدّنيا والتهمَ الانتظارُ أيّامنا، في الرّسالة الخامسة عشر يتّضحُ ذلك أكثر :
إلى الطّبيب كارلوس

وقتك سعيد
لم أتغلّب على الخوفِ مساء ذلك اليوم، وأذكرُ اللّيلَ وقتها كيف مرَّ ببطئٍ شديد، أمّا أفكار الذّعر تكاثفت في رأسي دون عداها، خاصّةً بعدَ رؤيةِ جون بتلك الحالة لذا بقيتُ بانتظارِ الفجرَ علّه يأتيني بماتيو.
في الّساعة السّادسة من صباح اليوم التّالي، ارتديتُ قوّتي قبل ثياب تطغى عليها ألوان البهجة وكأنّني دون تحدّث

أتوسّلُ للكونِ أن يقفَ بجانبي، نزعتُ من رأسي بقايا الأفكار التي كانت تستدعي الضّعفَ، وانطلقتُ نحوَ حقل الأوركيد، في غضونِ خمسةَ عشر دقيقة وصلت، لكن ما من حقلٍ ، ما من أوركيدٍ، ما من رائحةِ أوركيد، للوهلةِ الأولى ظننتُ نفسي مخطئة في المكان، للوهلةِ الأولى توقّفَ الزّمنُ بي، شيئاً فشيئاً بدا المشهدُ يتجسّد واقعاً وما وجدته كانَ رماداً فقط، لم أكن بحاجة أيضاً لأحدٍ يخبرُ عيناي بما ترى، وبأنَّ نيراناً لا أعرفُ مصدرها كانَت هنا في وقتٍ ما خلال اليومين الماضيين، لكنّني رفضتُ التّصديق، كذّبتُ عيناي، ومن أينَ لي قبولاً بما أرى ؟

فالقبول حينها يعني فتح أبواباً من الخيبات والصّدمات، والأسئلة.
مرّ أكثر من عشرون دقيقة، ورائحةُ الرّماد يزدادُ شعوري بها، باتت تحثُّ قلبي على أسئلةٍ إجاباتها ليست مَطَمئِنَة :
أينَ ماتيو؟
كيف احترقَ الأوركيد ومتى؟
أيُعقَلُ أنّ ماتيو لَقِيَ حتفهُ هنا حين تغلّبت عليهِ نارٌ أجهلُ سببها؟
اكتفيت حينها بنطقِ كلماتٍ من يأس:

قبل الموت المُتعارَف عليه ؛يموتُ الإنسانُ بأكثر من طريقة، ومرّاتٍ عديدة، وحين اجتاحتني فكرة احتراقك مع الأوركيد كأنّها لسبعين مرّة أماتت قلبي.

أتدري ؟ لم يكن باستطاعتي حينها تحديد ما شعرت بهِ، لكنّي تمكّنت من معرفةِ الشّعور المسيطر:
لقد كان شعور الخوف، الخوف من الأشياء التي ستحدث بعد تلك اللّحظة.

مارينا
١٩٦٤/٥/٢٠

لطالما كان ولا زال الخوف عدوّاً للنّفسِ البشريّة، لطالما كان حاجزاً يقف بيننا وبين الحقائق، ويجعل منّا أشخاصاً نهابُ أن نتقدّم خطوةً نحوَ الآتي، ليس لشيء سوى أنّه من الممكن أن تكون تلك الخطوة هي الفاصل بين مانريد وما لا نريد، فنحن مهما تعدّدت الأسباب نبقى على قيد خوفٍ من أن نفقدَ شيئاً أضافَ لحياتنا حياة.

يوضّح كارلوس آليّة التغلّب على الخوفِ تحت أيّ ظرف، فيكتب الرّسالة السادسة عشر :

لمارينا

لا أظنّها سهلة تلك المشاعر التي راودتكِ وقتذاك، ولا أنكرُ وضوحَ تأثير الخوف عليكِ لذا تعلّمي يا مارينا آليّة تقبّل الشعور مهما كانت طبيعته : سلبي أو إيجابي، تعاملي معه وكأنّه ضيفٌ في جسدكِ ما إن تتقبّليه حتّى يختفي تأثيره تدريجيّاً، وكوني على ثقةٍ تامّة بأنّ ماحدثَ وما سيحدث هو دوماً لصالحك، عليكِ فقط الانتباه لرسائل الحياة، لا تتجاهلينها أبداً، لا أعلم لماذا أشعر بأنّ الأشياء التي حدثت لكِ بعد احتراق الأوركيد أعطتكِ فرصاً لتغيير قناعاتٍ كثيرة بداخلك، هكذا هي الحياة.

متلهّفٌ لقراءة ما تبقّى من الحكاية.

وأذكّرك بأنّي أحببت طريقةَ بوحك.

كارلوس

١٩٦٤/٥/٢٢

مهما تعاظمت قوّتنا ذكرى واحدة باستطاعتها أن تعكفَ الاتّجاهات نحو الحنين،والرّسالة السّابعة عشر تفيضُ بهِ.

إلى الطّبيب كارلوس

طابت أوقاتك

لم يكن بمقدوري الانسجام بما حصل حينها، كانت كلّ خليّة بداخلي ترفض ماحدث، أذكرُ كيف غادرتُ المكان كمَن يحمل على عاتقه هموماً بحجمِ الكون، سرتُ أقصدُ منزل كارلا، وعلى غفلةٍ منّي تذكّرتُ حدثاً له في قلبي تقديساً عظيماً:
في إحدى الليالي الماطرة تشاجرنا ماتيو وأنا، ونال الغيابُ منّا، دامَ ذلك الغياب مايقارب الأربعة أشهر، اعتقدنا بأنّ ما بيننا التهمته النّهاية، لكنّه ماتيو أنقذَ الحكاية برسالتهِ التي لا زالت ذاكرتي تحتفظ بها ومحتواها كان الآتي :

(أتعلمينَ يامارينا أنّ الألمَ العظيم لم يَكُن فقط في أنَّ أشياءً قد انتهت بَل يأتي من أحداثٍ أخرى تتلو الغيابَ الأخير، أعلمُ أنّكِ ستحاولينَ السّباحة في بحرِ اللّغة، ستتشرحينَ لنفسِك ما أكتبه آلافَ المرّات، لكنّكِ دونَ مقاومة ستغرقينَ في معانٍ كثيرة، والحيرة ستأكلُ باللَكِ،وكم يعزّ على قلبي أن يراكِ هكذا، لذا جلستُ هنا على شرفةِ منزلي أحتسي ذكرياتي صباحاً، وأنظرُ لطبقٍ على الطّاولة ملأتهُ بثمارِ الأوفوكادو بانكسارٍ لم أشعر بهِ من قبل، وفي هذه اللّحظة تحديداً وجدت نفسي ولأوّلِ مرّة قادراً على أن أصِفَ لك ما خلّفتهُ بيننا المسافات، فالطّاولة تسألُ قلبي :أينَ هيَ ؟ ورائحةُ الخشبِ فيها باتَ يغلِبُها الحنين، ساعةُ الحائطِ تنادي لكِ أسفاً لقد

فاتَتكِ المواعيد، حتّى بائعُ الأزهارِ في حيّنا أراهُ متحسّراً على أزهارِه قد أماتَها الذّبولُ حقّاً بعد أن تاقَت لتتنّفّسين رحيقَها، ثمارُ الأوفوكادو هنا تخلو من مذاقِها وتقول أينَ هي؟ تلك التي تعطي الأشياءَ َمذاقاً يمتزجُ بالحبِّ والفرح.

فأينَ أنتِ؟
لماذا تعقُدينَ ضدّي صلحاً مع القدر؟ فترحلينَ وتبقينَ في كلّ الأشياء وأصبِحُ كمن يجدُ الشيءَ ويفقِدُه بآنٍ واحد !
أتناسى، أوجّه نظري للشّارع واضعاً تركيزي في الحاضر ،يمرُّ أمامَي العابرون وعبثاً تفشلُ محاولاتي بانتزاعِ الماضي، لا لشيءٍ بل لأنّ الأسئلة تنهالُ على رأسي من نظرةِ كلّ عابرٍ فأحدَهم يقول لماذا يجلسُ وحيداً وآخرٌ يتساءَلُ هل غادرتهُ الحبيبة؟ وكلّ الذي حولي يتمحورُ حولَ سؤالٍ وحيد : أينَ هي ؟
فأينَ أنتِ؟ وأينَ اللّقاء؟ أين اللّهفةُ يا مارينا ؟ أين العناق؟ لا عليكِ، سأدخلُ الآن للمنزل فنسماتُ الهواء باتت باردة، سأجرُّ معي قولاً واحداً يشرحُ عمقَ الخيبة :
حقّاً الألمَ العظيم يُكمَن بِما بعدَ الغياب!) .

في كلّ مرّة أستعيدُ فيها كلمات تلك الرّسالة يعتريني عطفٌ لا نهاية له، وأرغبُ بالبقاء مع ماتيو ماحيَيَت، لكنّها الأيّام مراوغة للحدّ الذي تجعلكَ تنحني دهشةً وألماً بآن واحد، لن أنسى لن أنسى كيف شعرت حيالَ جملته الأخيرة :
(الألم العظيم يكمن بما بعدَ الغياب).
وعندَ كلّ وعكةٍ يصاب بها حبّنا أسترجع كلماته تلك، كانت كافية وكفيلة بأن تعيدنا
سويّاً حتّى وإن تفاقمت الأمورَ لأقصى درجات الخصام.

أغلقتُ ذاكرتي وهماً، وفي غضونِ دقائق معدودة وصلت لمنزل كارلا، فالصّديق الحقيقي يحملُ حزنك معك، ويخفّف عنك ماتمرّ به أثناء التّعايش فيما يسمّى بالحياة.
الآن، قبلَ إنهاء هذه الرّسالة أريدُ إخبارك بأنّي أرغب في المجيء للعيادة، ربّما البوح يصبح أفضل حين يمتزج بنكهةِ الملامح التي تشرّبت تفاصيلَ ما جرى.

مارينا
١٩٦٤/٥/٢٣

كم هي صعبة على المرءِ محاولاته الفاشلة في أن يتجرّدَ من عاطفتهِ، كم هو مخيفٌ أن يصبحَ رهيناً لها، تخيفه كلمة

غياب، وعكسها كالبقاء مثلاً يقدّم له الأمان المنشود، مارينا كانت هكذا. لكن إلى متى ؟

الرّسالة الثّامنة عشر:

لمارينا

سعيدً بكِ

لا زلتِ تواصلينَ التحكّم في اللّغة، لازلت الأجدر بذلك، قويّةٌ أنتِ، صلبة وهشّة بآن واحد، لكنّك تمتلكين قدرةً على التّخطّي وهذا ما سنغعلهُ معاً، فالتّشافي من الندوب أصعب من النّدوب نفسها لكنّه ليس بالأمر المستحيل، لذلك أنا بانتظارك غداً في تمام السّاعة العاشرة صباحاً.

كارلوس

١٩٦٤/٥/٢٤

صباح اليوم التّالي، ذهبت مارينا لمقابلةِ الطّبيب كارلوس، علامات الأمل بالتحرّر ممّا مضى كانت تبدو في عينيها،تنظرُ للشمس فتأخذها قدوةً في الشروق كلّ يوم، وصلت للعيادة وجلست دقائق دون أن تنطق بكلمة واحدة إلّا بعدَ حديث كارلوس لها :

وأخيراً التقيتكِ يا مارينا، أتعلمينَ بأنّه لأمرٍ عظيم اتّخاذك قرارَ المجيء إلى هنا؟!

أتعلمينَ مقدار اللّهفة لاستماعِ ما تبقّى؟

لكن قبل أن تبدأي بإكمالِ البوح عليك أن تنظري للمرآة خلفك وتشاهدين لمعةَ القوّة والتجدّد كيف تظهر في عينيكِ.

وكان ردّها الآتي :
كل الأشياء تتوهُ في النّسيان إلّا تلك التي جعلتك في لحظةٍ ما مُتعادياً مع ذاتك،هذا ماحدث تماماً بعد وصولي لمنزلِ كارلا، جلسنا واللّحظات كانت تمشي على قلبي منتعلة حذاءً من غرور المضيّ قدماً دون الاكتراثِ لما يخلّفه مرورها، جاءَني صوت كارلا يحملُ حقيقةً أجهلها:
البارحة ظهراً في طريقي إلى جون رأيتُ أحداً ما يفتعلُ حريقاً مقصوداً بحقل الأوركيد، لكنّي لم أقوَ على الاقتراب للتأكّد مِن الفاعل، ثمّ ركنتُ الخوفَ خلفي واقتربت،وما رأيته كانَ أشبه بشيءٍ يجعلنا نصمت ساعات متواصلة نمعن النّظر في كمّيةِ الشرّ المصابة به الحياة، يومها يا مارينا كانت إيليانا من أضرمت ناراً هناك، لكنّي أيضاً لم أستطع أن أذهب إليكِ وأحمل لك ما لا يريده قلبك، وعند مجيئك الآن بات من الضّروري إخبارك بما حدث.
كنت أنظر لكارلا بعينين دامعتين،ثمّ سألتها :
وماتيو ؟!
أشاحَت بنظرها نحو النّافذة وقالت:

لم أرَه منذ يومين بل أكثر، لكن أظنّهُ تحت ظرفٍ ما، على أيّةِ حال ما إن يعود سوف نزرع أوركيداً على مساحةٍ أوسع، لا تحزني، ألم تقولين لي بأنّ الغائب يبقى بحمايةٍ ربّانية حين ندعو له على الدّوام؟!

اتّخذتُ كلامَ كارلا كبنجٍ صلاحيته قاربت على الانتهاء، غادرتها والحيرة تتملكّني، تقيّدُ طيور التّفاؤل بداخلي فتكسر أجنحتها وأبقى رهنَ انتظار.

أثناء عودتي للمنزل، تراءَى أمامي وجهُ إيليانا، تذكّرتُ أيّامنا معها واللّقاءات المنعشة للرّوح حتّى وإن تخلّلها بعضُ الكره أحياناً، يا للخيبة! حياتنا تكتضُّ بمن
يفتقدونَ الجّمال في نفوسهم، لدرجةٍ يصبحونُ غير قادرين على رؤيةِ أشياءً تعطي للقلبِ أماناً وسكينة، يحطّمونَ فيكَ الأمل، فتندم على معرفتهم بقيّة حياتك.

كارلوس : تخيّلي الحياة دون أولئك الأشخاص، تخيّليها دون الكاذب، والمخادع، دون الحاقد والكاره
كيف ستغدو ؟

السيّئون يا مارينا جاؤوا ليجعلوننا نشعر بقيمةِ الجيّد ،يقودهم القدر لأيّامنا بأقنعة تختلفُ عن الحقيقة ثمّ تُرفَع الستائر ويكشَف المستور، و بفضلهم ننتقل للنّضج رويداً رويداً.

مارينا: إنّ أكثرَ الأشياءِ إيلاماً للإنسان هي عدم امتلاكه خيارات تمكّنه الاكتفاء من الوعكات التي تصيبه، فلماذا مثلاً لا يوجد خيار في أن نحدّد النّضج الذي نريده؟ وحين نحصل عليه نعيش الهناء، دون أن نُفاجَأ بأحداثٍ وأشخاص، دون أن تتبدّل الحكايات وتنتهي، لماذا علينا تحمّل السّوء الذي يعتري البعض؟
أظنّها عبثيّة الحياة لا سبيل لتجميلِ صورتها حتّى.
يجيب كارلوس بطريقةٍ تضع مارينا على ضفاف التّشافي:
من قال لك بأنّنا لا نمتلك خيارات الاكتفاء ؟
إنّها موجودة، ومتاحة لكنّها لا تأتي مغلّفةً كهديّة بصندوقها الخشبيّ، ولن يقدّمها لنا النّصيب إِثرَ مصادفة على إحدى أرصفةِ الحيّ الذي نقطن فيه.
خيارات الاكتفاءِ يامارينا تصبح بحوزَتنا حين نصلُ لمرحلةٍ متقدّمة من السيطرة على الألم، وعدم السّماح له في أن

يتحكّمَ بشخصيّتنا، بل نعانقه بحنان كما لو أنّه سيودّعنا بعد ساعاتٍ قليلة.

مارينا: تتحدّث عن الألم يا كارلوس وكأنّه شيئٌ يمكننا التّعامل معه،كيف تتمّ المعاملة إذاً ؟
نظر كارلوس نحو فنجان القهوة أمامه وقال ضاحكاً:
لا مانع يامارينا من احتساء القهوة مع الألم، وإذا حدثَ وسألكِ أحدٌ ما؛ لمن الفنجان الآخر ؟
قولي للألم، تعلّمي المواجهة في أبسط الأمور، تعلّمي صناعةَ عالمك الخاصّ بك.
ومن الطّرائق التي نعامل بها الألم أيضاً:
مخاطبةِ الذّات؛ وذلك من خلال توجيه عبارات عديدة كالآتي :
أنا أتقبّلُ مشاعري كما هي.
أنا أتصالح مع الألم.
أو من خلال توجيه أسئلة للكون وعدم انتظارِ الإجابات لأنّها حتماً ستأتي. والأسئلة تصاغ كالآتي:
كيف للكون أن يجعلَ حياتي أفضل؟
ماهي الهدايا والتّعويضات التي يخبّئها لي القدر ؟
لماذا أشعرُ أنّني متناغمة مع كَوني والحياة؟

هكذا ..... حتّى نشعر بأنّنا أفضل، ثمّ ننتبه لإشاراتٍ تحصل خلال أيّامنا وتثبت بأنّ الأجابات جاءت.

لا زالت مارينا تتأرجح بين يقينٍ بأنّ كلّ ماحولنا يوحي بالجمال إن تمكّنا من التصرّف، ورويبة تنفي ذلك، تعودُ للبوحِ المطوّل، فتنظرُ لطبيبها نظرةَ يأسٍ وتوجّهُ حديثها الآتي له كما لو أنّها تختصرَ مأساة الإنسان:

دوّن كلامي هذا يا كارلوس إن أحببت، وربّما لاحقاً يقرأه الآخرون أثناء بقائي على قيد الحياة أو موتي، لذا بوحي هذا موجّه لكلّ شخصٍ على هذه الأرض:

أيّها القارئ قبلَ أن تقرأ عليَّ إخبارُكَ بحقيقةٍ ما :
بعضُ الكلامِ يتحوّلُ لأداةٍ حادّة إن لامسَ حزناً ما في الذّاكرة فيعيدُ الجراحَ مفتوحةً لطالما عانيتَ طويلاً في إغلاقِها، هُنا ستعتريكَ مشاعرٌ كثيرة، وربّما تشعرُ بأنّ الخيبةَ ترتديكَ عنوةً بدلاً من أن ترتديها ، ستجدُ مراكبَ الألمِ تتّجهُ نحوَ قلبِكَ مغادِرة مرسى موتِها الذي أوهمتَ نفسك بهِ منذ زمنٍ بعيد.
لذا قبلَ أن تقرأ انتعل قسوتكَ كي لا تسيرَ حافياً في دروبٍ أشواكُ الماضي تملَؤها، وإن كنتَ لا تمتلكُ قدرةً على

مواجهةِ ذكرياتكَ اعذرنِي؛ أنتَ لستَ مؤهلاً لأن تخوضَ حرباً عتادَها كلماتٍ وذاكرة.

يخيّلُ إليَّ أحياناً أنّني قادرة على ردعِ الحنين لأشياءٍ قد مضت وعندَ منتصفِ المواجَهة أدركُ بأنّنا أضعفُ من ذلك كثيراً.

صراعي لم يكن معَ الحنينِ وحدَه، هذا ما اكتشفتُهُ حينَ تآمر الانتباهُ عليَّ والتصقَ بي في كلِّ لحظة، ذاك الانتباهِ لم يكن عاديّاً بل عاث في روحي خراباً لم ولن ينتهي.
جالسة البارحة بالقربِ من نافذةِ الغرفة، أرتشفُ الصّباحَ شغفاً وحبّاً دونَ القهوة، هادئة ما من شيءٍ يطالُ مواضعَ السّلامِ بداخلي، حتّى ماتيو، كارلا، جون وإيليانا وكلّ ما حدث حينها تخطّيته ،وبنظرةٍ عفويّة وجّهت عيناي نحو أزهارِ اللّيلكِ في ركنٍ بالقربِ منّي، اللّيلك نعم؛ فمحبّتي للأوركيد انتهت منذ سنوات.
لكن اغتالني قهرٌ ليس بضئيل، إنّي أراها ذابلة لا تنبضُ بالحياةِ أبداً، أضافَ لقلبي هذا المشهد كثيراً من الأسى، والوعي بدأَ ينهالَ على روحي كَما لم يحدث من قَبل، فأصبحتُ أعي حقيقةً وحيدة تردّدها طيورُ الألمِ في نفسي : (كلُّ شيءٍ آيلٌ للزّول)؛

فأشياؤنا غادَرتنا دون أن نغادِرها؛ انظر لحياتِكَ ياصديقي وجرّب أن تحصي كمَّ النّهاياتِ التي بحوزَتِكَ :
أشخاصٌ كُثُر قد غيَّبَهُم موتٌ أو سفر، محطّاتٌ من عمرِكَ تخطّيتها وانتهت، أكوابُ قهوة تشاركتَها مع أصدقاء أخذوا من الرّحيل ألفَ طريقٍ وطريق، دفء عائلة طغت عليهِ برودةُ الفقدان، وطفولتك التي تبقى معلّقاً فيها تودّ لو يهديكَ الزّمانُ يوماً واحداً منها،يا للأسف! أصبحتُ أتجرّعُ مرارةَ النّهاية من لذّةِ البداياتِ وحلاوتِها،وأعي أنَّ العمرَ وإن طالَ ستُسدَلُ عليهِ ستائرَ العدَمِ كأنّهُ لم يكُن ، لا أظنّه سهلاً هذا الشّعور؛ أن يصبحَ للنّهاية أيادٍ تلوّحُ لك من بعيد وتصافحُ بداياتٍ تنفّست للتوّ،لا أعتقدُ بأنّني قادرة على التخلّص من ذلك الوعي الذي اجتاحني حدَّ اليأس، ومن سماءِ تلك الحقيقة انهمَرَت الأسئلة مطراً :
لمَ نبدأ؟

من أجلِ ماذا نبدأ ؟
لمَاذا نعيشُ طالما أنّ الرّدى سيطوي أعمارَنا؟

لماذا نلتقي ونحن على معرفة تامّة بأنّ الوصولَ الأخيرِ لأقدامنا سيكون في أراضيَ الفراق؟
والذّاكرة من أجلِ ماذا وُجِدَت ؟
أيُعقَل أنّها تحوي هذا الكمِّ الهائل من العذابِ والحنين دونَ عزاءٍ يربتُ على كتفِها؟
لا أدري، ولم أستطِع الإجابة عن أسئلةٍ كهذهِ، لكنّني في الحياةِ أمضي وأحاولُ تناسيَ الحقائق، ما منِ شيءٍ ثابتٍ هنا، عليكَ فقط أن تديرَ نفسك جسداً وروحاً يتناسبانِ مع أيّ تغيير، وتُدرك أنّ المُصيبةَ الأعظمَ حينَ تأتي لتتصالح مع النّسيان لكن كلَّ مابداخلكَ يردّد مهلاً ....مهلاً..... للقلبِ ذاكرة !

كارلوس مصابٌ بالذّهول من قدرة مارينا في التّعبير عن الحياة بهذه الطّريقة، ما إن انتهت حتّى قال لها والبسمة تأخذ وجهه مسكناً لها:
من يستمع إليكِ يصبح في حالة تمنّي بأن يصيبه الألم مراراً وتكراراً، لكنّه من المؤسف إن تبقينَ تحت تأثير عبارة (كلّ شيء آيل للزّوال) حتّى وإن كانت تحمل الحقيقة كلّها، عليك أن تأخذي بعين الاعتبار الأشياء في مرحلةِ ما قبل الزّوال، وتجعلين ذاتك بغايةِ الأهميّة، تعتنين بها وتردّدين دوماً:

إن ذهبَ الجيّد، لا شكّ بأنّه ترك مجالاً للأفضل منه في أن تحدث.
تنهضُ مارينا وتخاطب كارلوس:
كانت السّعادة تحومُ حولي أثناء حديثنا معاً، لكنّها عجزت أن تلامس روحي، ربّما في الأيّام القادمة ننجح في جعل السّعادة تعترينا، تلامسني، وأبقى على قيدها.
سأغادر الآن، المعذرة لم يعد بإمكاني إيقاظ ذاكرتي أكثر.
كارلوس: عليك العودة غداً لمتابعة التّشافي، أو باستطاعتك أيضاً كتابة الرّسائل ريثما نلتقي.

39

استمرّت مارينا مايقارب الأربعة أشهر في الذهاب لعيادة الطّبيب النفسيّ، تبادلا الكلام حول ما حدث لكنّها مارينا لم تختم الحكاية، ولم تتحدّث عن اختفاء ماتيو، بل كانت تستعيد ذكرياتهما معاً دون التطرّق لأحداث النّهاية.

لم تكن المشكلة في ذكرياتٍ عابرة تقتحم أيّامنا،كلّ المشكلة في أثرها، ومارينا تحاول ترتيب مشهد الحكاية الأخير قبل أن تلقيه على مسامع كارلوس، لكنّها رجفةَ العودة لمنعطفاتٍ ماضية جليّة في صوتها،لذا قرّرت أن تكتبَ له الرّسالة
الثّامنة عشر:
إلى الطّبيب كارلوس

لك التّقدير

حاولتُ ألّا أعود لكتابة الرّسائل خاصّةً بعد شعوري بأنّني أفضل من قبل منذ آخر لقاء تمّ بيننا، كما أنّني أصبحت بقادرة على رفعِ طاقتي والتمسّك بخيوط التّفاؤل المنبعثة مع شمس كلِّ صباح، لكنّها النّهايات حين أستذكرها تستحوذُ على بريق الأمل وتجعله عقيماً عن إنجابِ أيّام منشودة.

40

مرّ يومان لم أستطع بهم أن أقنعَ نفسي بالذّهاب للعيادة خوفاً من مضاعفات الألم التي ستغزو تفاصيل وجهي حينها.
ولا أدري لماذا أحلامنا البيضاء التي نبنيها تُهدَم مع مرور الأيّام، ولا تتوافق مع ترتيبات الزّمن، أتُكمن فيها المشكلة أم أنّنا نضع على عاتقها مسؤولية التحقّق في زمنٍ وُجِدت فيه الأحلام كي تبقى سراباً فحسب؟
أمنياتي كانت أن تستمرَّ الأشياء التي نحبّها في البقاء والنموّ؛ كضحاتِ أصدقاء تشبه رنّةِ العود في الإطراب، كنظرات عائلة يفيضُ الحبّ من عينيها، كبائع الورد في آخر الشّارع العتيق المزخرف بحروفٍ كتبوها أطفالَ الحيّ، وكعشّاقٍ على قارعة الطّريق باتوا لا يملكون طريق.

كماتيو أيضاً، كجون وكارلا وإيليانا، كنفسي التي تغيّرت وتبدّلت حتّى أصبحت أشتاقها كما لو أنّها صديقة ماتت منذ زمنٍ قديم.
ستكون رسالتي طويلة قد تكون الأخيرة أيضاً.
وكثيرة هي الأشياء المحفورة بالذّاكرة عمداً، كتلك الأيام التي داهمها الانتظار والقلق على ماتيو والحزن على أوركيدٍ أحببناه معاً، مضى أكثرَ من إحدى عشر يوماً ولا جديد يُذكَر غير أنّني ذهبت لرؤية إيليانا أربع مرّات ولم أجدها، وفي يومٍ اختلفت طقوسه عن الانتظار والحيرة، كان باب المنزل يُطرَق، فتحته وإذ بكارلا أمامي، قلت لها على الفور:
أعلمتِ شيئاً عن ماتيو ؟
طوال الإحدى عشر يوماً لم أحظَ بمقابلةِ إيليانا، والانتظار التهم روحي قهراً.
دخلنا للمنزل وما إن جلسنا حتّى أجهشت كارلا بالبكاء، وبدأت تتكلّم متلعثمة:

هذا الصّباح يامارينا وأثناء ترتيبي لمكتبتي التي هجرتها منذُ سنين، وقعت يدي على كتابٍ يحمل عنوانَ الكارما بمعنى العدل الإلهيّ، وطوال الفترة الماضية كنت أشعر أنّ الدّنيا تعاكسني والهمُّ يتغذّى على قلبي، فتحت الكتاب وقرأتُ بعضَ صفحاته

معظمها يدور حولَ فكرة واحدة :
مانفعله يعود علينا عاجلاً أم آجلاً فالإنسان ليس مسيّر فقط، بل مُخيّر وخيارٌ واحدٌ يكفي لكي نعتنقَ الإنسانيّة ونكون بذلك قدّرنا نعمة الرّوح التي أُكرِمنا بها فاختيارنا للخيرِ مهما حدث يعني أن تتدفّق في أيّامنا السّعادات العارمة التي لن تنتهي، وأنا فشلت في ذلك؛ فأحببت ماتيو وبدأَنا نخفي الخيانة منذ سنة ونصف ، لكنّه ذات يوم بدأ يشعرُ بافتقادٍ لكِ ويحاول أن ينهي مابيننا دون خسائر وبدأَ يشفق على جون، هكذا حتّى قرّر أن يقومَ بإصلاح خطواته الخاطئة أي أنّه قرّرَ إنهاءَ ما بيننا.
يومها وافقته قراره لكنّي وضعت شرطاً أن يأتي في اليوم التّالي ويكون ذلك اليوم بمثابة وداع لكلينا.

في اليوم التالي، جاء ماتيو يحملُ النّدم على كتفيهِ، ثمّ ذهبنا معاً لحقلِ الأوركيد كونه من أكثر الأماكن المحبّبة إليه، سارَ هو لمنتصفهِ شارداً بهِ وبقيت أنظر نحوه نظرة المحبّ،بعد ثوانٍ قليلة أشعلت النّار في الحقل كان ذلك أسهل من رؤيةِ ماتيو يعود إليكِ، حاولَ هو جاهداً أن يسيطر عليها لكنّها النّار تلتهم ما يعترضُ طريقها،
كنت سعيدة وغاضبة ومستاءة بآنٍ واحد.
فماتيو فارقَ الحياة قبل مجيئكِ بيومٍ لمنزلي تلك المرّة.

لك الحقّ يامارينا في تغضبي وتكرهي كلّ ما يذكّرك بي، لكنّه النّدم بات يعانقُ حياتي، وأعترف أنّني أردّت الاعتذار من إيليانا وذهبت إليها لكنّه بائع الحلوى الذي يقطن بجانب منزلها أخبرني أنّها انتقلت من الحيّ منذ إسبوعٍ، فات الأوان على الاعتذار، فات الأوان على تصحيحِ الأفعالِ، لكنّه قلبي خائفٌ من ذلك العدل الذي لن أجرؤ على تحمّلهِ يوماً، أمّا جون يامارينا حين أستذكرُ حبّه رغم مساوئهِ أجده أفضل منّي ولا مجال للمقارنة حتّى.

أذكر ياكارلوس يومها قمت بطرد كارلا من منزلي ولم أستطع تحمّل كلمة أخرى منها،وباتت الأفكار تصفعني:
تلك العفويّة المثاليّة باتت خائنة ثمّ قاتلة.
إيليانا التي ظننتها من أعدائي غادرت الحكاية كلّها دون أذى أو ضجيجٍ يُذكَر،
تشابكت الأشياء من حولي، وتبدّلت الصّفات، ماتيو : حبيباً ثمّ خائناً ثمّ نادماً ومفارقاً للحياة، ألديكَ طريقة نعاتبُ فيها مَن فارقَ الحياة ؟
ألديكَ علاجاً يصلح ما جرى فيعيده مألوفاً؟
ألديكَ عقاقيرٌ نتناولها فتعود إلينا أشياؤنا التي نحبّ ؟
لم أفعل شيئاً ذلك اليوم غير أنّي ذهبت لجون على عجلة أحمل بقلبي حزن الكون كلّه.

وحين رأيته بدأت أسئلتي تنهمر عليهِ كمطرٍ غزير:
لمَ أتيت ذلك اليوم باكياً؟
أكنتَ عالمٌ بما حصل؟
أم أنّك بكيتَ لسببٍ آخر؟

جلب لي كأسَ ماء وطلب منّي أن أهدأ، ثمّ بدأ حديثه وعيناه تنظر نحوي:
طوال حياتي يامارينا لم أشعر بالاستقرار، كنت في كلّ فترة أتعرّضُ لخسارةٍ ما، وبعض الخسارات تأتي كخاتمة لا شيء يُذكَر بعدها، فقدّت أمّي منذ أن كان عمري خمسة عشر عاماً، وحين تعافيت من مرارةِ هذا الفقدان تعرّض والدي لحادثِ سيرٍ أودى بحياته، كنت في الثّامنة عشر، أيقنت حينها أنّ الحياة ما هي إلّا خساراتٍ متعدّدة علينا التقبّل فقط بروحٍ بكاؤها صامت، وحين أحببتُ كارلا أتقنت دورَ اللّامبالي كي تبقى متمسّكة بي، هكذا يقولُ علم النّفس: إن أردّت شيئاً تجاهله لا تجعله بشعر بأنّك تريده بشدّة، لكنّي فشلت أيضاً في الحفاظ على كارلا.
دعيني يا مارينا ألقي على مسامعك ما كتبته لكارلا ولم أرسله لها، فالكلام أحياناٌ يصبح أغلى من الذين نكتب لأجلهم ذات حنين، جلب الرّسالة وبدأ بالقراءة بدموعٍ على وجنتيه:

ثمَّ تحوّلنا لشكلٍ آخر عكسَ ذلك الذي رسمناهُ في زمنِ البداية ولهفتها ، رغم أنّه كان بإمكاننا التّنازل بعض الشيء كي نضمن سلامةَ ماتبقّى فينا من طيبة واشتياق، عاشقان تحتَ ضوءِ الحياة الخفيت نحن ، عندَ كلِّ منعطفٍ للخصام تصاعدَ في سماء قلوبِنا ضباب الكبرياء كما لو أنّه قد عقدَ صلحاً مع الغياب....ذلك الغياب الذي لا زالَ يمتدُّ بيننما كسرابٍ لا نهاية له،
والحبُّ يقفُ مكتوف الأيدي عاجزاً عن لحظةِ وصال، يا لخيبةِ الأيّام من عابري العاطفة!
وكم قويّة ذاكرتك أيّها الزّمن؛ فساعةُ الحائط، وحتّى الرملية وكل ثوانيَ الوقت تردّد :
لم تعد المواعيدُ عقداً على عنقِ السّاعات.

الوقتُ يمضي والجفاءُ في ازديادٍ دائمٍ والوصالُ بات منقطعاً، لكنّهُ الحنين يجعل الأشياءَ تسيرُ عكس تيّارها، أكثرَ من خريفٍ توالى على انتهاء مابيننا، وعدّادُ الذّاكرة يستبيح أعمارنا برشفةِ ندم.
مرّت أيّامٌ كثيرة كان للقسوةِ فيها السّطوةَ الأعظم، أمرّ أحياناً من جانبِ مقهى لهُ في قلبي ما لهُ، وشيءٌ ما يدفعني للدّخولِ إليه، أجلسُ ووجهي بعكسِ طاولةِ حبّنا، لكن من منّا يمتلكُ

تلك القدرة على إسكات ماضٍ لا زال يقبعُ فينا حتّى وإن جلسنا في اتّجاهٍ معاكسٍ لهُ ؟
ها هي أصواتُ ضحكاتنا تغتالُ حاضري تتعالى حتّى لا أسمع شيئاً عداها، أمسك قلماً كي أدوّن شعوري لك ياكارلا فأكتبُ رسالةً بنكهةٍ مخادعة للغياب أيضاً:

يا أ نتِ هذا العمرُ قصيرٌ ، ماضيه بقدرِ ما هو بعيد إلّا أنّهُ عنوةً يلتصقُ بحاضرهِ فلتأتِ لذاتِ المقهى قبلَ أن يشرّعَ الموتُ أبوابَهَ.

أنظر للشّارع نظرةَ ذلك الذي قضى عمره في انتظارِ ما لا يأتي.

أضافَ ضاحكاً:
كتبتها أثناء خصامي مع كارلا منذ أربعة سنوات، وتصالحنا قبل إرسالها.
لا يوجد نعمة أكبر من أن يمنحك الله قدرةً على التخطّي والبدء من جديد، لذلك مامضى لا يُعاد والباقي من أعمارنا أقلّ من أن نهدره بحثاً عن أشياءٍ غادرتنا وانتهت.

خرجت من منزل جون والمشاعر تقيمُ حرباً بداخلي حزنٌ من هنا وضعفٌ من هناك، حيرةٌ واشتياق، حنينٌ وحسرة واستنكارٍ، لكنّه بغضِّ النّظر عمّا يعانيه قدّم لي مواساةً وقال أنّنا نمتلك نعمةَ البدء من جديد، لذا قرّرت أن أغادرَ الماضي كما يغادرنا وما إن أصل لمنزلي سأنتظر حكايات جميلة بأشخاصٍ أنقى، سأتذوّق لذّة البدايات.
وصلت لمنزلي لكنّه يكتضّ بالماضي، واجهت كلّ ذكرى، على مدار ثلاث سنوات كنت في مواجهاتٍ كثيرة مع ذكرياتي،
حتّى أنّني كتبت لماتيو رسائلاً كثيرة إليكَ الآتي منها:
(عادَ مارس فعُد كي نشتمَّ أوركيداً اشتاقَ لصوتِ خطواتنا نحوه، فعند كلّ لقاءٍ بيننا وبين الأوركيد كانَ لِكَتفي ذاكرة؛ وكنتَ تضع رأسَك عليهِ كعصفورٍ يتّكئُ ناسياً مشقّةِ الطّيران والرّحيل، مرّ بيننا الزّمان ورحلتُ عنّي تائهاً في الموت الأعظم، من بعيدٍ أنظرُ بقلبي نحوَ ماضينا معاً ويعلوني انكساراً لم يعلوك.

غريقان نحن في البعدِ والألم. يا للحزن العارم بسؤالٍ يأتيني عنوةً: أتعي ما معنى أن يملكَ الكتفُ ذاكرة؟)
كتبتُ كثيراً هكذا..... حتّى أصبحت ذكرياتي لا تعني لي شيئاً.

اليوم أنا أفضل من السّابق، اليوم ممتنّة لكلّ ماحدث وما سيحدث، ومدركة بأنّ الحياة آفاق شاسعة الأفضل منها لم يُفتَخ بعد، اليوم وعند انتهائي من كتابة هذه الرّسالة أعلن الشّفاء والتغلّب على ما مضى.

مارينا

١٩٦٧/٤/٧

يقولُ كارلوس بعد قراءتهِ رسالة مارينا بأنّ السّعادة التي أُصيب بها وإن أتت بعدَ دهشة واستغرابٍ وحزن لكنّها كانت أعظم سعادة يشعرُ بها على الإطلاق فثلاث سنوات كانت تعني له الكثير، امتلأت بالبوح الجميل، والألم العظيم، ثمّ تكلّلت بالتّعافي من ماضٍ مسموم،وكتب الرّسالة العشرون: لمارينا

كامل المحبّة والفخر

لن أطيلَ في كلامي، لكنّي أردّت إخبارك أنّني بانتظاركِ صباح الغد، هناك فضولٌ يعتريني لرؤيةِ ملامحَ التّعافي.

كارلوس

١٩٦٧/٤/٨

صباح اليوم التّالي :

ثُــمّ لم يبقَ شيءٌ.

هذه العبارة أراها مكتوبةً على جدارٍ كان من الممكن ألّا ينهارَ ويبقى للأبد لولا وعوداً بالبقاءِ أُلقِيَت على مسامعِهِ.

هذا آخرُ ما تفوّهت بهِ مارينا ودمعُ عينيها ينهمرُ ؛حين سألَها طبيبها النّفسي كارلوس:(والآن بماذا تشعرينَ يا مارينا ؟) ظنَّاً منهُ أنّها تماثَلت للشّفاءِ.

ثانيةٌ من الصّمتِ..ثانيتان ثُمّ دقائق قليلة عبثاً يحاولُ فيها كارلوس استرجاعَ ما تعلّمهُ في مناهجِه الدّراسيّة، يستذكرُ أهمَّ المراجع في مجالِ الطّبّ النفسيّ، ويـُعطي لمارينا موعداً ليسَ بقريب.

تتوجّهُ هي نحوَ بابِ العيادة وما إن تفتَحَهُ وتغادِر يصابُ هو بيأسٍ تامٍّ كما لو أنّها أبوابُ الأملِ قد تسكّرت كلّها والمفاتيحُ مفقودة، يخاطبُ نفسَهُ بصوتٍ مرتفع:
من أينَ للألمِ أن يمتلكَ هذهِ القوّة فيبقى قابعاً فينا رغم شتّى المحاولاتِ في تخطّيهِ وانتزاعهِ؟
من أينَ لنا أن نجلبَ جرعات تخديرٍ للذّاكرة؟
من أينَ لنا نسيانٌ ؟

أربعةُ سنواتٍ يا مارينا ..أربعةُ سنواتٍ وأنتِ تتجرّعينَ مرارةَ الوقتِ وتحاولينَ صنعَ حاضرٍ يخلو من أثرِ ماضيه، وأحاول معكِ في سبيلِ ذلكَ وتَستجيبين، لكنّه الحنينَ ومراوغَتَهُ خلسةً يأتينا ويرتدي ثوباً من ذكرياتِنَا دونَ أدنى شعورٍ بِنا.

نحوَ النّافذة يمشي يريدُ أن يتناسى ماحدثَ للتوّ ويبدأ من جديد، وعند الخطوة الثّانية على قلبِه سقطت من ذاكرَتِهِ ورقة وتراءَى أمامَ عينيهِ ما كُتِبَ فيها كما لو أنّهُ مشهدٌ يستدعي زمناً كاملاً من البكاء ، أمعنَ النّظرَ فيها ليجدَ عبارةً تحملُ حبّاً اعتقدَ أنّهُ تناساهُ، صوتُ طيورِ النّورسِ خالطَ صوتَه حين كان يردّدُ تلك العبارة، ودون مللٍ لا زالَ يردّدها :

(مهما حدثَ إيّاكَ أن تنسى أيّامَنا معاً).

من يومَها طوى كارلوس خيبَتهُ، وأصبحَ على يقينٍ بأنّ ما من شيءٍ يؤلمهُ سوى روحَهُ خاصّةً بعد ورقةِ الذّاكرة تلك.

نظرَ للطّاولة وإذ بصندوقٍ خشبيّ اقترب منه وقام بفتحه وإليكم ما وجدَ:

رمادٌ، ورقة كتب فيها الآتي:

طبيبي كارلوس هذا الصّندوق بمثابة رسالة أخيرة، فأنا لم أجد تجسيداً يليقُ بالحياة أكثرَ من رماد هذا الأوركيد.

بحزنِ الكونِ كلّه لا زالَ يرسلُ لمريضتِهِ رسائلاً بنكهةِ الأسف وإليكم أبرز ما كُتبِ فيها :

•(المعذرة يا مارينا، كنتُ أظنُّ بأنّ علاجَ الرّوحِ سهلٌ إلى أن تآمرت علينا لعنةٌ وأعادتنا أسرى ذاكرة).

•(رجاءٌ بطعمِ المودّة، فلتَعذريني بحجمِ كلّ المراجع التي تحدّثت عن الصّحة النّفسيّة، وبقَدرِ كلماتِ المواساة التي قلتُها لكِ، فطبيبك مريضٌ اليوم، ويا لها من معاناةٍ حين نصابُ بوجعٍ اعتقدنا أنّنا نمتلك مهارةَ علاجهِ.)

مرّ وقتٌ طويلٌ لم يتوقّف كارلوس فيه عن كتابةِ رسائله لمارينا إلّا بعدَ الرّسالة الآتية :

مرّ على مجيئكِ للعيادة خمس سنوات كنت خلالها في كلّ مرّةٍ يأتيني فيها مريضٌ قاصداً علاجاً نفسيّ أفشلُ في مساعدتِه، اليومُ أعلِنُ اعتزالي تلك المهنة،وأعلمُ ما كنتِ تقصدينَ بذاكِ الجّدار ؛ إنّهَ النّفسِ بحدّ ذاتها، اليومُ أدرِكُ أنّ لا عزاءً في العزاء كما نظنُّ.

صديقي القارئ؛ الرّسالة الأخيرة منّي إليك:
تذكّر أنّك تمتلك القدرة على تصحيحِ مسارك قبل أن تتحوّل لأوركيدٍ محترق فاقداً للحياة، تعلّم كيف تأخذ ماضيكَ على محملِ النّسيان لكن بعد تعلّمِ الدّروس، عليك أن تعلم أيضاً بأنّك بحاجةٍ لجرأة على التّغيير والتّماشي مع الزّمن فالثّبات في الماضي ما هو إلّا سراباً لن تطاله أيادي الأمنيات،عليك أيضاً إتقان مهارة التقبّل قبل أن يفنى العمر ولا تزال على أطلالِ ذاكرة، ولا تنسى إعادةَ النّظر في زوايا حياتك بين الحين والحين، تمرّن على معرفةِ من حولك ولا تنخدع بظاهر الأشياء، لا تكن كمارينا؛ تسمح لذاكرتك بأن تتغلّب عليك، أو ككارلوس؛ ثابتاً وداخله ضعيف للحدّ الذي يهزّه حنينٌ عابرٌ طفيف،
وانتقِ المحيطين بك بدقّةٍ تامّة، فليس كلّ من حولنا يستحقّ المجازفة في أن نجعله يتخطّى حدودَ منطقتنا الآمنة: سلامنا الدّاخلي